فتن وعبادات

العبادة في الهرج

عمر بن محمد شفيق
الجامعة السلفية، بنارس

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إن الله جل وعلا خلق الثقلين لعبادته وحده لا شريك له، وبعث إليهم رسله ليرشدوهم إلى طريق الحق والسداد وينذروهم من طرق الغواية والضلال، وبعث خاتم أنبيائه وأفضل رسله محمدا صلى الله عليه وسلم بالشريعة النقية والرسالة الخالدة، ونسخ بشريعته سائر الشرائع، وأوجب على جميع الخلق الإيمان به واتباع ملته.

ولما كانت العبادة هي الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها كما قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات ٥٦] كان لزاما على كل من يبغي النجاة ويريد الفلاح أن يسعى لتحقيق العبودية ويجعلها نصب عينيه ويجعل جميع أعماله تابعة لعبودية الله عز وجل.

لكن الغالب أن الناس في زمن الفتن في غفلة وذهول عن العبادة والطاعة، بل ربما كان بعضهم غافلا عن الفرائض فضلا عن غيرها بسبب انشغالهم بالفتن وانهماكهم فيها، وهذا أمر خطير، ولا يوفق للعبادة في الهرج إلا من اصطفاه الله عز وجل وأراد به الخير.

قال القرطبي رحمه الله: إن الفتن والمشقَّة البالغة ستقع حتى يَخِفَّ أمر الدين، ويَقِلَّ الاعتناء بأمره، ولا يَبْقَى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاش نفسه وما يتعلق به، ومن ثَمَّ عَظُم قدرُ العبادة أيام الفتنة. (فتح الباري ٧٥/ ١٣)

ومن أجل ذلك جعل الله عز وجل العبادة في زمن الفتن من أفضل الأعمال وأجل القربات، فإن الإقبال في زمن الإدبار، والاستقامة في زمن الانتكاسة دليل على الصدق مع الله عز وجل، والإخلاص في عبوديته جل في علاه، فإن السالكين إذا كثروا سهلت الاستقامة، وإذا قل السالكون واشتدت الغفلة أورث ذلك وحشة وغربة للمتمسك بدينه والمحافظ عليه، ولذلك عظم الأجر وتضاعف الثواب، فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ. [رواه الترمذي (٣٠٥٨) وصححه الألباني]

وليس معنى هذا أنه يكون أفضل من الصحابة باستقامته وتمسكه بدينه، فإن شرف الصحبة لا يعدلها شيء، وزيادة الأجر لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة.

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ. [رواه مسلم (٢٩٤٨)]

قال النّوِوي رحمه الله: المراد بالهَرْج هنا: الفتنة، واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه: أن الناس يَغْفُلون عنها ويَشْتَغلون عنها، ولا يتفرّغ لها إلا أفراد. (شرح النووي على مسلم ٨٨/ ١٨)

والعبادة وقت الغفلة أشق على النفوس، وذلك لأن الإنسان يرى من حوله ويتأثر بهم، ويرى كثرة الفتن والفساد والمغريات، وقلة الأعوان على الطاعة والعبادة، ولذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى التمسك بالدين والاستقامة في زمن الهرج والفتن.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وإذا عَمَّت الفتن اشتغلت القلوب، وإذا تعبَّد حينئذٍ متعبِّدٌ، دلَّ على قُوَّة اشتغال قلبه بالله عز وجل فيَكْثُر أجره. (كشف المشكل ٤٢/ ٢)

قال القرطبي رحمه الله: المتمسك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها المعتزل عن الناس، أجره كأجر المهاجر إلى النبي ﷺ؛ لأنه يناسبه من حيث أن المهاجر قد فر بدينه عمن يصده عنه إلى الاعتصام

بالنبي ﷺ، وكذلك هو المنقطع للعبادة، فر من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه، فهو على التحقيق قد هاجر إلى ربه، وفر من جميع خلقه. (المفهم ٣٠٩/ ٧)

وما أشبه زماننا هذا بهذه الأوصاف المذكورة في هذين الحديثين، فقد ضعف الإيمان في قلوب الناس، ولم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه، وانتشرت العداوة والبغضاء في قلوب الناس، وظهر أعداء الإسلام وغلبوا، وضعف المسلمون وتفرقوا، وانتشرت المادية، وفسدت الأخلاق، وأقبل الناس على زخارف الدنيا وزهدوا في الآخرة، وصارت الدنيا مبلغ علمهم يركضون ورائها ويجرون خلفها، واتخذوا دين الله وراءهم ظهريا.

ومع هذا لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من روح الله أو يقنط من رحمته، فإن دين الله باق إلى قيام الساعة، ولا يضره قلة السالكين ولا غربة السائرين، فإن الله جل وعلا تكفل ببقاء دينه، وهذا يبعث روح الأمل في العاملين، ويشجعهم على الثبات والاستقامة.

قال الحافظ ابن رجب: الناس في زمن الفتن يتَّبعون أهواءهم، ولا يرجعون إلى دين؛ فيكون حالهم شبيهًا بحال الجاهلية، فإذا انفرد من بينهم مَن يتمسَّك بدينِه ويعبد ربَّه، ويتَّبع مراضيه، ويجتنب مساخطه، كان بمنزلة مَن هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به، متبعًا لأوامره، مجتنبًا لنواهيه. (لطائف المعارف ١٣٢/ ١)

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الفتن، وقد رأى ذات ليلة في المنام أنه سيقع بعده فتن، فأمر بإيقاظ زوجاته للصلاة والاستعاذة من الفتن، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتِ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: "سُبْحَانَ اللهَّ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ؟ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ؛ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ". [رواه البخاري (١١٥)]

وقد فرق الله عز وجل بين من أنفق من قبل الفتح وقاتل وبين من أنفق من بعد

الفتح وقاتل، فقال تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) [الحديد ١٠]، وما ذلك إلا لأن الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح فعلوا ذلك في وقت ضعف وقلة، بخلاف الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح فإنهم فعلوا ذلك في وقت قوة وعزة، وفي هذا دلالة واضحة على أفضلية العمل في وقت الضعف والخوف على غيره.

فمن وفقه الله للثبات على الدين والاستقامة على الطاعة في هذا الزمان فليحمد الله على هذه النعمة وليقدرها حق قدرها وليسأل الله الثبات على هذه النعمة، وليستبشر، فإن الله جل وعلا يحب العبادة في أوقات الغفلة، لأنها دليل على حياة القلب ويقظته، ودليل على الإخلاص والصدق، ولذلك كان القيام في الليل أفضل منه في النهار (إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا) [المزمل ٦].

والمؤمن الصادق لا يتقلب ولا يتغير بتغير الأحوال والظروف، بل يكون ثابتا على دينه متمسكا بعقيدته، همه في هذه الدنيا وشغله الشاغل فيها: تحقيق العبودية لله جل وعلا (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [الحجر ٩٩]

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

هـذا وللمتمسكين بسـنة المختـار
عنـد فسـاد ذي الأزمـان

أجـر عظـيم لـيس يقـدر قـدره
إلا الـذي أعطـاه للإنسـان

فـروى أبـو داود في سـنن لـه
ورواه أيضـا أحمـد الشـيباني

أثـرا تضـمن أجـر خمسـين امـرءا
مـن صـحب أحمـد خـيرة الـرحمن

إسـناده حسـن ومصـداق لـه
في مسـلم فافهمـه بالإحسـان

إن العبـادة وقـت هـرج هجـرة
حقـا إلي وذاك ذو برهـان

***